# إشكاليات قصيدة النثر العربية

التجربة الشعرية الجديدة في العالم العربي من أهم الظواهر الإشكالية إثارة للجدل والنقاش في الأدب العربي المعاصر، ومن أكثر القضايا إلحاحا على توسيع دائرة التفكير والحوار والبحث النظري والتحليل النصي ضمن حركة النقد الأدبي المعاصر، فما يزال الكثير من بلادنا وشعرائنا يرفضون الاعتراف بانتماء تجارب قصيدة النثر إلى أن الشعر برغم ما فيها من نصوص جيدة تتوفر على المميزات الجوهرية لفن الشعر، ورغم ما تطفح به من شاعرية وتميز فني إبداعي، وما يقترحه بعض شعرائها من تجديدات وإبدالات في بنية النص الشعري العربي ومن جهة أخرى ما يزال الاختلاف قائما بين شعرائها وأنصارها أنفسهم في التصور النظري لطبيعتها ومكوناتها النصية ومميزاتها الفنية، فرغم انتشارها الواسع واكتساحها الساحة الأدبية والشعرية في مختلف أرجاء العالم العربي فإن كثيرا من الإشكاليات النظرية والظواهر النصية التي أثارتها يكتنفها اللبس والغموض، ولم تنل ما تستحقه من بحث نظري وتحليل نصي وضبط للمفاهيم والمصطحات.

ويمكن تصنيف أهم هذه القضايا والآراء والمواقف في ثلاث إشكاليات نظرية ونصية رئيسية تمثل جوهر الخلاف والنقاش الدائر حاليا حول قصيدة النثر في العالم العربي ، وهي:

1- إشكالية المصطلح
2- إشكالية الإنتماء الأجناسي
3- إشكالية الوزن والإيقاع

لكن قبل ذلك من الضروري في البداية تحديد مجموعة من الاعتبارات والقناعات الأساسية التي ننطلق منها في التعامل مع حركة قصيدة النثر والكتابة عنها، وهي:

1- قصيدة النثر من صميم جنس الشعر، وهي شكل من أشكال التحول في الشعر العربي، فرضته الظروف الثقافية والحضارية الجديدة، ولبست جنسا أدبيا جديدا

2- إن الدفاع عن شكل قصيدة النثر لا يعني التعصب لها أو إقصاء الأشكال الشعرية الأخرى وإنكار قيمتها الفنية والإبداعية

4- التشكيل الإيقاعي، وليس الوزن العروضي ، خاصية جوهرية ومميزة للخطاب الشعري، يمكن تحقيقه بآيات وتشكيلات عديدة لا نهائية وليس بالتشكيل العروضي فقط.

## 1- إشكالية المصطلح :

من بين العوامل التي ساعدت على عدم اعتراف كثير من القراء والكتاب بانتماء هذه التجربة الجديدة إلى فن الشعر مصطلح القصيدة النثر الذي شاع وراج بشكل واسع بالرغم مما يحمله من مفارقات وعدم صلاحيته للدلالة على طبيعة هذه التجربة وتنوع مساراتها، وعدم استيعابه لتعدد الأشكال والممارسات النصية التي تبلورت فيها، وللتحولات و الإبدالات التي أحدثتها في بعض مكونات النص الشعري

وتتحمل جماعة "مجلة شعر" التي تأسست سنة 1957 المسؤولية الكبرى في تبني هذا المصطلح والترويج له انطلاقا من التجربة الفرنسية واعتمادا على كتاب "سوزان برنار" المعروف الذي ظهر بهذا الاسم سنة1958... وقد أدى التشبث بهذا المصطلح إلى تشجيع كثير من الشعراء والنقاد المحافظين على التشكيك في شعرية نصوصها، وكان من الأفضل اعتبارها منذ البداية نمطا من أنماط التجديد في الشعر العربي أو شكلا من أشكال الشعر الحر كما سبق أن اقترح جبرا إبراهيم جبرا.

لذلك اقترح إعادة النظر في هذا المصطلح أو تبني مصطلح أخر بديل يستوعب خصوصية هذه التجربة في الفضاء العربي، لأن تجربة قصيدة النثر في العالم العربي لها استقلالها وخصوصيتها، فهي متعددة الأصول والروافد ومتميزة عن التجربة الأوربية رغم تأثرها بها في البداية، ولذلك لا ينبغي أن تسقط عليها مفاهيم ومصطلحات وخصائص مستوردة من خارج منجزها النصي أو مستعارة من تجربة أخرى مخالفة.

وقد اقترحت في هذا الإطار مجموعة من المصطلحات المدينة مثل الحساسية الشعرية الجديدة، الجيل الشعري الثمانيني، والتجربة الشعرية الجديدة، ويبدو أن هذا الأخير ملائم على الأقل في المرحلة الراهنة رغم أنه لا يعير هو أيضا بدقة من خصوصية هذه الحركة وما يميزها عن باقي حركات التجديد في الشعر العربي، رغم إقراره بجدتها ومشروعيتها الشعرية وطابعها التجريبي .

2- إشكالية الانتماء الأجناسي :

ينطق كثير من الشعراء والنقاد العرب المعاصرين. برفض اعتبار نصوص قصيدة النثر نصوصا شعرية، من عدم خضوعها للشروط المتوارثة في كتابة الشعر العربي وخاصة على مستوى الوزن أو الإيقاع والبناء الهيكلي، فالبعض يعتبرها كتابة نثرية تحمل بعض ملامح الشعر ، والبعض الآخر يعتبرها جنسا أدبيا جديدا ما زالت لم تتبلور ملامحه ومميزاته وهناك من يعتبرها جنسا كتابيا خنثي . كما وصفها الشاعر والباحث الفلسطيني "عز الدين المناصرة"، على أساس أنها ليست شعرا ولا نثرا، مستشهدا ببعض آراء محمود درويش وأحمد عبد المعطي حجازي لدعم موقفها

وما يجمع هذه الأيام لها هو رفض الاعتراف بانتهاء هذه النصوص الجديدة إلى جنس الشعر اعتمادا على تصور محافظ لطبيعة الشعر ومكوناته النصية وتحولاته الداخلية.

يقول عز الدين المناصرة في هذا الصدد: "قصيدة النثر جنس كتابي ثالث بحمل صفات الشعر والنثر، ولا مسوغ لتسميته شعرا لو نثرا بل كتابة خنثى، ولا معنى للاعتراض على كلمة خنثى لأن هذه القصيدة النثرية أو الشعر بالنثر أو الشعر المنثور لها إيقاع نثري، ويقول محمود درويش: إنني أرى في النصوص الجديدة إدعاءا نظريا أكثر من تحقق شعري (...)، هناك خلل ما في ما يسمى قصيدة النثر ، فهي قد توحي بالسهولة لمن ليسوا شعراء ، ولكن المحك الأساسي دائما هو نوعية الشعر وحجم الإنجاز الشعري في كل تجربة ٠٠٠). آن لنا أن نصل إلى استخلاصات ناضجة وأن نفهم ما هو النظام الإيقاعي والبنائي لهذه القصيدة ، فأنا أقرا نصوصا جميلة من قصيدة النثر باعتبارها جنسا أدبيا ومن يكتبون هذا النوع منهم الشعراء ومنهم دون ذلك . . .

ويقول احمد عبد المعطي حجازى متبنيا نفس الموقف تقريبا: قصيدة النثر أصبحت شكلا شائعا، لكن هل دخلت الشعر العربي ام لا يزال هناك تحفظ شديد عليها(...). فانا لا اعتبر أن لدى انسي الحاج مثلا قصيدة, لديه ربما كتابة شعرية وليس هو وحده في ذلك، هناك أعداد كثيرة. ويمكننا أن نعد العشرات ممن يستخدمون اللغة استخداما شعريا في لبنان او في سوريا او في مصر او العراق أو المغرب. لكنهم لا يكتبون قصيدة.

ورغم أن هذه الآراء والأحكام صادرة عن شعراء لهم مكانة كبيرة في الشعر العربي المعاصر فإنها لا تعتمد على حجج كافية ومقنعة ولا نحتكم إلى المميزات الجوهرية لفن الشعر ولا نأخذ في اعتبارها فكرتي التحول والمهيمنة في نظرية الأجناس الأدبية فالحكم على انتماء قصيدة النثر إلى جنس الشعر أو عدم انتمائها إليه ينبغي أن ينظر إلى الخصائص العامة المهيمنة على نصوصها الجيدة والراقية، فرغم أن الأجناس الأدبية تداخل أحيانا وتتقاطع في عملية الكتابة فإنه لا بد أن تهيمن في آخر المطاف صفات نوعية خاصة على النص، فإما أن تهيمن عليه صفات الشعر أو صفات أحد أجناس أو مستويات الكتابة النظرية والصفات المقصودة هنا في الصفات أو الخصائص النوعية الجوهرية في الجنس الأدبي وهي في الشعر ثلاث التشكيل اللغوي، والتشكيل الإيقاعي، والرؤيا الشعرية والقاري المتتبع سوف يلاحظ أن النماذج الجيدة في قصيدة النثر تتوفر على هذه الخصائص ، اما النماذج الضعيفة في مستواها الفني والإبداعي فهي بالفعل أقرب إلى النثر العادي من الشعر ، علما بأن الجنس الأدبي، ونحن هنا بصدد الشعر، يخضع للتجديد والتحول الداخلي وليس ذا طبيعة جامدة مع محافظته طبعا على هويته الأساسية وعناصره الجوهرية المميزة له كنوع أدبي.

وفي حالة قصيدة النثر تم اعتبار خروجها عن بعض العناصر التقليدية في الشعر العربي عملا مذموما وتقصيرا معيبا، رغم كونها عناصر متحولة وغير ثابتة . انطلاقا من نظرة شكلية محافظة لا تهتم في الشعر إلا بعنصري الوزن والتفعيلة وتلغي او تهمش العناصر والخصائص الأخرى المميزة له على مستوى اللغة والإبداع والبناء النصي.

### 3- إشكالية الوزن والإيقاع:

إن الوزن العروضي الذي يتخذه هؤلاء الشعراء منطقا لرفض انتماء نصوص هذه التجربة الجديدة الى الشعر ليس عنصرا جوهريا وخالدا في الشعر. فالتشكيل الإيقاعي هو الشرط الضروري والجوهري في الخطاب الشعري وليس الوزن العروضي الذي يمثل إحدى التشكيلات الإبداعية المسكنة للشعر العربي وليس التشكيل الإبداعي النهائي الوحيد والممكن.

فالإيقاع الحر المفتوح والمتنوع هو الأصل ، وهو أسبق من الوزن وأعم منه، والشعر ارتبط في بداياته الأولى، وفي أبسط صوره ، بالتشكيل الإيقاعي الواسع والمتعدد وليس بالأوزان والتفعيلات المضبوطة والقواعد الصارمة ثم إن الوزن غير كاف للدلالة على انتماء النص للشعر، فكثير من النصوص والمنظومات موزونة مقفاة ولكنها ليست شعرا.

لقد أصبح من الخطأ اليوم، القول بان الشعر لا يقوم سوى بالتلائم مع شكل وزني معين، فالخطاب يمكن أن يكون شعريا حتى مع عدم المحافظة على الوزن

يقول عز الدين المناصرة: قصيدة النثر خاطرة نثرية ذات لغة شعرية أو هي جنس كتابي خنثى تنقصها الدلالة الصوتية وينقصها الإيقاع الشعري رغم اشتمالها على إيقاع فكري وصور شعرية ولغة شعرية الإيقاع الموجود في قصيدة النثر هو إيقاع نثري وليس إيقاعا شعريا لأنه يفتقد إلى خاصية الانتظام التكراري ...

ويقول احمد عبد المعطي حجازي إلى أي حد يمكن أن تستغني القصيدة عن الإيقاع، هذا يقودنا إلى التفريق بين القصيدة والكتابة الشعرية، لأن الكتابة شيء يختلف عن القصيدة وهذا يدعو إلى التساؤل عن مدى حريتنا في إسقاط الإيقاع واقصد به الوزن تحديدا.

والحق أن الفرق بين إيقاع الشعر وإيقاع النثر لا يكمن في أن الأول موزون والثاني غير موزون ، فهذا يدل على نظرة سطحية وقاصرة في النظر إلى اشتغال مكونات النص الشعري ، وإنما يكون الغرق في أن الإيقاع في الشعر دال بنفسه ويقوم بوظيفة صوتية ودلالية رمزية وجمالية ، وفي كونه يشتغل في تضافر وتقاطع مع العناصر الأخرى اللغوية والتركيبية المكونة لبنية النص الشعري.

ثم إن النصوص الجيدة من قصيدة النثر لا تخلو من الإيقاع الشعري ولا تخضع الإبداع النثري كما يقول المناصرة، وإنما يكمن إيقاعها الخاص وتنتج تشكيلاتها الإيقاعية بآليات وطرق مخالفة للنماذج العروضية والإيقاعية التقليدية، وتحقيق هذا النمط من التشكيل الإيقاعي اصعب من اتباع التشكيلات الوزنية الجاهزة، فرغم ما يتيحه من حربه في البناء والتشكيل فإن له شروطه وصعوباته، فهو يحتاج إلى ذوق موسيقي وإلى إحساس دقيق بالتناغم والتنوع الإيقاعيين وإلى قدرة على الخلق والتشكيل وتحقيق التفاعل مع العناصر الأخرى المكونة لبنية النص الشعري، لأن الإيقاع في الشعر لا يمكن تصوره مستقلا أو معزولا عن العناصر الأخرى أو بعيدا عن وظيفته البنائية والدلالية.

ثم إن القول، هكذا بشكل مطلق. بغياب الإيقاع الشعري في قصيدة النثر قول غير دقيق. ولا يدل على متابعة دقيقة وشاملة لما ينشر ضمن هذه الحركة من نصوص وتجارب متنوعة، ففي دراسة نظرية ونصية أنجزتها حول إشكالية الإيقاع في قصيدة النثر بالمغرب تمكنت من رصد عدة آليات وظواهر إيقاعية في بعض نصوص هذه التجربة، منها:

1- تكرار الأصوات الصوائت القصيرة والطويلة بمراكمتها وتوزيعها بطريقة معينة.

- تكرار الألفاظ المتجانسة صوتيا كليا أو جزئيا عن طريق الاشتقاق او الجناس أو الترديد أو القافية ..

و ترديد ألفاظ متماثلة صوتيا ودلاليا أو علامات وثيمات متماثلة دلاليا، أو رمزيا عن طريق الترادف والتداعي والاستدارة... وهذا يدخل ضمن ما يمكن تسميته بالإيقاع الدلالي

- التوازي وهو ذو طبيعة مورفوتركيبية يتحقق بتكرار صيغ وتراكيب متماثلة في البنية النحوية والصرفية وفي الطول والمسافة والزمنية وأيضا في طبيعتها التنغيمية

5- التشكيل الهندسي الفضاء النص ، وهو يدخل ضمن الإيقاع البصري الذي يتحقق بالمسائل والاختلاف بين اشكال خطية أو هندسية بصرية .

مع الإشارة إلى أن هناك حقا نصوصا لا تهتم كثيرا بالإيقاع إلا ما جاء عفويا. وتعني أكثر بشعرية اللغة والصورة والرؤيا. لذلك أرى من الضروري أن أتوجه بهذه المناسبة إلى شعراء قصيدة النثر باقتراح

العناية أكثر بالإيقاع والتشكيل الإيقاعي في نصوصهم وتوظيفه صوتيا ودلاليا رمزيا، لأن الإيقاع الشعري. وليس الإيقاع العروضي . خاصية نوعية وجوهرية في الخطاب الشعري.